

التربية والتعليم

عند العرب والفرنج

للاستاذ أحمد فهمى العمروسى بك

ناظر مدرسة المعلمين العليا

في الجزء الأول من السنة الثانية (مايو سنة ١٩٣٢) تناول الأستاذ الجليل أحمد فهمى العمروسى بك ، البحث عن أصول التربية والتعلم عند العرب وموازتها بما عند الأفرنج ، مثبتاً أن للعرب فضل الأسبقية في جل الآراء الحديثة؛ وقد عنى الأستاذ العمروسى بك بكتاب أدب الدنيا والدين بصفة خاصة ، فتناول منه طرفتين بالتحليل والتفصيل .
وها هو الآن يتناول الطرفة الثالثة - والأخيرة من البحث - بالتبيان والتبسيط ، بما لا يترك مجالاً لناقد أو جاحد على العرب فضلهم في المحرور

الطرفة الثالثة للمواردى : وهي طرفة هامة جداً لأنها تتناول جوهر التربية وتمس أهم

معضلاتها وأدق مشكلاتها وهي بنصها :

« ينبغي للعالم أن تكون له فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحملة ذكاؤه أو يضعف عنه بلادته ، فانه أرواح للعالم وأنجع للمتعلم — وقد روى ثابت عن أنس بن مالك، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله عبداً يعرفون الناس بالتوسم » ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا عدت ما رأيت » ، وقال عبد الله بن الزبير : « لا عاش يتخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه » .

وإذا كان العالم في توسم المعلمين بهذه الصفة ، وكان بقدر استحقاقهم خبيراً ، لم يضع له عناء ، ولم ينجب على يديه صاحب ، وإن لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم ، كانوا وإياه في عناء مكند وتعب غير مجد .

وقال بعض العلماء : « كل علم كثر على المستمع ، ولم يطاوعه الفهم ، ازداد القلب به عمى ، وإنما

ينفع سمع الأذان إذا قوى فهم القلوب في الأبدان » ١ هـ

هذه الجملة على قصرها أثارت في نفسى أمرين خطيرين : الأول حرج مركز المعلم وصعوبة

موقفه وعظم التبعة الملقاة على عاتقه في المجتمع ، والثانى الطريقة المنلى التي يجب عليه أن يسلكها

في تقويم عقول الناشئين وتهذيب أخلاقهم .

ولكى تفهم موقف المعلم في الأمة من موقف غيره من العاملين بخيرها كالمهندس والطبيب وغيرها ، ولكي ندرك الصعوبة التي يلقاها ، والعقبات التي يصادفها بالنسبة لهؤلاء ، يجب أن نلم بالفرق بين العلم والفن ، فنقول : إن العلم والفن شكلان مختلفان من أشكال التفكير ، والفرق بينهما كالفرق بين النظري والعمل ؛ فالعلم يبحث في النظريات والنواميس العامة دون أن يلبس الكائنات ، إلا ريثما يلاحظ ليستنبط ، ويقين ، بخلاف الفن فإنه يلقي بنفسه في أحضان المحسوسات ليطبق تلك القوانين العامة على الكائنات على اختلاف أنواعها ، وفي الظروف المختلفة التي تحيط بكل حالة منها على أفرادها ؛ فعلم الطبيعة مثلا يضع القوانين العامة لاجازية والحرارة والكهرباء والمغناطيسية بصرف النظر عن استقرار الأجسام التي تظهر فيها تلك الخواص ، فلا يتبعها فرداً فرداً لمعرفة أحوالها وخواصها ، أما الفن فإنه يضرب همه إلى تطبيق تلك القوانين العامة والاستفادة منها في رفع الأقال مثلا ؛ ونقل الأجسام من مكان إلى آخر بحيث إن كل مسألة تؤخذ على حدها وتحل على حسب ما يناسبها .

وبينا العالم يسبح في هدوء ، يسكون في عالم الحق الصريح بعزل عن الناس يشخذ ذهنه ويرد فكره في استنباط الحقائق وتقنينها ، وليس له من غرض سوى اتباع شهوته العقلية ، والتوغل في التتوحات العلمية ، والتعمق في ميادينها المجردة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، إذا بالفن يضع نفسه وسط الأشياء لفرض معين محدود ؛ فالرقي مثلا ينصب نفسه وسط الناس لتعليمهم وتلقينهم الحقائق العلمية وفقاً للقواعد التي وضعها علماء التربية ، وهي مهمة - ولا شك - أشق من مهمة العالم ، لأنه باتخاذها إياها مهمة له قد أخذ على نفسه أن يهذبها ويرتبها حتى يجعلها سائغة لقبها عقول الناس ، ولهذا يتخير الأساليب السهلة ، ويتوخى الطرق الشائقة التي تترك أكبر أثر في نفوس المتعلمين ، مع العناية بتمهين تلك الحقائق وتخليصها من كل ما يشوبها من شوائب الشكوك والتأويلات الباطلة ، فيكرر ويعيد - بدون ملل أو كلال - حتى يصل بالمتعلم إلى ذاية ما يريد وتلك مهمة دائمة تستوعب العمر وتستنفد الحياة ، فكما ذلت صماب بدا غيرها ، وكما دوويت علل فلهرت علل ، ومن هنا ترى البون شاسعاً بين مهنة المدرس وبين مهنة المهندس مثلا في الصعوبة التي يلقاها كل منهما ، فالمهندس يعمل على أجسام خامدة وأرقام صامتة ، ويصل إلى نتيجة حاسمة ، وليس لجسم من الأجسام أن يشذ عن القاعدة ، أما المدرس فيعنى بأجسام ذات أرواح وعقول وشعور وميول ، تختلف في شخص عنها في الآخر ، ولكل واحد أحوال خاصة تستدعي علاجاً خاصاً . ولذلك كان أفلاطون يقول : إن أرسطو يحتاج إلى لجام ، أما زينكرات فإنه يحتاج إلى مهماز .

وقصارى القول : إن الصفة البارزة في المعلم هي الفراسة والنظر الصحيح إلى المتعلمين وتوسمهم ، كما يقول الامام الماوردي رحمه الله ، حتى يرسل شعاع فراسته إلى عقولهم وميولهم وسلوكهم وأخلاقهم ، فهم يختلفون في العقول اختلافهم في الوجوه ، وإن اختلافهم في الاحساس

والشعور أوسع وأعظم ، فلشكل واحد منهم شعور خاص وميول خاصة ، كما أن له لغة خاصة وتعبيراً خاصاً ، وطرقاً للتفكير غير طرق أخيه وزميله ؛ فخذ الشرف مثلاً - الذي يفتن لأول وهلة أنه فضيلة عامة في الناس بدرجة واحدة - فإن تقديره يختلف كذلك في إنسان عن تقديره في آخر . فقد ذكر التاريخ أن القائد الروماني (كانون) قتل نفسه عقب انتصار يوليوس قيصر عليه في موقعة « يوتيك » ، بينما سلم أقرانه القواد الآخرون الذين تربوا معه تربية عسكرية واحدة ، وهزموا معه في تلك الموقعة ، دون أن يروا في الخوض للقوة والاستسلام للغالب خطأ من كراتهم أو مساساً بشرفهم .

ومن نصائح الامام ابن خلدون الغالية في هذا الصدد « أن لا يؤخذ الغلمان جميعاً بطريق واحدة ، وأن لا يعاملوا معاملة واحدة في العلاج والتهديب ، وإنما يجب أن يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطبائعهم وأسنانهم وبيئاتهم » ، قال : « وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، كذلك المرابي لو أشار على المرادين بنمط واحد من الرياضة أهلكتهم وأمات قلوبهم ، وإنما ينبغي أن ينظر في مرض المرید وفي حاله وفي سنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة ويبني على ذلك رياضته » ١٥ .

وهنا يجب على أن أنبه الأذهان إلى هذه الملاحظة الدقيقة ، وهي أن فكرة اعتبار الطفل فرداً مستقلاً ذا شخصية مستقلة - يحتاج في تكوينه وتهديبه إلى علاج خاص ، تلك التي فطن لها فلاسفة العرب - لم تكن معروفة قط عند الأمم الأوروبية في القرون الوسطى ، بل كان المعروف عندهم أن التربية واحدة للجميع ، فكان التلاميذ يفكرون بطريقة واحدة ويشعرون بكيفية واحدة كأنهم أفرغوا في قالب واحد ، وكان المدرس يعطي درسه لتلاميذه كأنهم كتلة واحدة ، دون أن يفكر في تكييفه وتنويمه وفقاً لطبائعهم وأمزجتهم وأحوالهم وأسنانهم ؛ وكانت العقائد الدينية تحظر كذلك أن يفكر إنسان بتفكيره الخاص ، وأن يشعر بشعوره الخاص ، ولم تظهر في أوروبا كلها فكرة اعتبار الطفل فرداً مستقلاً ذا شخصية ذاتية إلا في عصر النهضة أو إحياء العلوم في القرن الخامس عشر ، ولسكننا نحن في الشرق نتخبر بما كان عليه أسلافنا في تقرير هذه الفكرة والمعدل بها بطريقة فعلية ، كما أشار إليها ابن خلدون فيما قلناه ، وهو الذي دعا أساطين التربية والتعليم في أمريكا إلى التنويه والاعجاب به كما أسلفنا (١) .

وعلى المرابي فوق ذلك أن يكون مترها عن الأغراض المادية والمعنوية ، لأنه نصب نفسه لهذه الحرفة الشريفة كما أسلفنا ، وعليه أن يجد في عمله ، ويسعى إلى الخير جهده ، وليس عليه أن تتم المطالب ؛ فإن من أجل أمور هذه المهنة أنها تهيب نتيجة جهودها ، وتخشى عاقبة أمرها ، فقد يتحقق المرابي حين يفتن بالنجح حليفه ، وقد يكون انتصاره إخفاقاً تاماً وهزيمة منكورة ؛ وهذا

ما حدث للمربي «فنلون» حين عهد إليه تأديب «دوق برجونيا» ولى عهد لويس الرابع عشر، فإنه بدل أن يخرج منه للملكة ملكاً حازماً أخرج لها قسيماً زاهداً، ذلك لأنه وجه كل جهوده عن صدق نية وحسن اعتقاد - إلى ناحية الزهد والورع، فنجح في ذلك نجاحاً تاماً، إلا أنه أخطأ خطأ فاحشاً في التوسم وبعد النظر، فقد كان من أوجب الواجبات عليه أن يبت في تلميذه قبل كل شيء روح النشاط وحب العمل والتسيير والتسلط وما إلى ذلك من الصفات التي يجب أن تتوافر فيمن هو مرشح لتولي السلطنة والهيمنة على أمور أمة بأكملها؛ وقد تأتي الخيبة من طبيعة التلميذ الجامدة وعقله الخامل، وهذا ما حدث للمربي الفرنسي «بوسويه» مع ابن لويس الرابع عشر نفسه؛ فإنه لم يحصل منه بعد العناية الشديد والجهد الجهد على نتيجة تذكر.

من أجل هذا كله وجب على المربي - قبل كل إنسان - أن يعنى بعمله عناية تامة، وأن يبذل الجهد الجهد في سبيل تدليل مسائل العلم وتبسيطها وتمهيد الطريق لتفهمها للنشء تفهما صحيحاً، وعليه في الوقت نفسه أن يشتغل لوجه الله خالصاً، وأن لا يفتنار مكافأة على جهوده سوى شعوره أنه قام بما وجب عليه نحو أمته وبلاده بقدر ما وصل إليه الجهد، واتسمت له العاطفة، وإذا قدر له النجاح وأخرج للأمة رجالاً نافعين، فقد تمت له السعادة ونال الحسنى وزيادة، لتلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا على الآن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها»، وفي رواية أخرى: «خير لك مما طلعت عليه الشمس»؛ ذلك هو الموقف الدقيق الذي يقفه للعلم من تلاميذه شرحته - لقراء «المعرفة» الغراء - شرحاً يتفق وأهمية فطرية التفرس أو التوسم كما يقول الامام الماوردي.

بقي أن ننظر في تطبيق تلك النظرية وترسيمها في معالجة أمور التربية والتعليم فنقول: يجب أن تسير تربية الأطفال بليونة متدرجة متصاعدة، كما تتدرج الطبيعة نفسها في ظهور قوى الطفل النفسية، فيبدأ بتربية الجسم والعمل على إنمائه بالطرق الصحية، ثم يعنى بأمر التربية الخلقية التي تتناسب مع أسنان الأطفال، ثم تأتي بعد ذلك تربية الحواس، فيدربون على دقة الملاحظة والمضاهاة، حتى يتسنى لهم استنباط السكيات من الجزئيات، والتواعد والتماريف من الأمثلة، وبذلك ينتقل من المحسوس إلى المعقول ومن البسيط إلى المركب؛ فعلى المربي أن يترث وألا يتعجل فيكلف الطبيعة فوق طاقتها، والطبيعة البثرية كما يقول (روسو) هادية من تلقاء نفسها إلى الحق والباطل، كما أنها ملهمة الخبير والنثر؛ ولا شيء يصدها عن سواه السبيل وييمدها عن إدراك الغاية، التي هيأها الله لأدراكها، إلا التربية الناقصة البتراء التي فاعها (موتين) على القائمين بأمر التربية في زمانه، حيث يقول، «لقد كانت حكمة الأمة الفرنسية مضرب الأمثال من قديم الزمان، وإننا حتى اليوم لا نرى أذكى من أبناء فرنسا الصغار، ولكنهم للأسف لا يلبثون متى صاروا رجالاً أن يخيبوا الآمال، ويخلفوا المظنون، وينشأ من الغباوة والبلادة ما يلفت الأنظار ويغير الأفكار، وقد قال لي بعض الثقات: إن المدارس التي يختهقون إليها هي التي تعسد عقولهم وتسمى أفئدتهم».

وقد نحا الروائي الشهير (الكسندر دوماس) نحوه في الاضرار بالتربية في زمانه، حيث يستفهم أحد الممثلين في إحدى رواياته قائلاً: لماذا ينقلب أطفالنا الظرفاء المهذبون رجالاً غلاظ الأكباد خبثاء الطوية قساة القلوب، فرد عليه ممثل آخر قائلاً: لا بد أن يكون السبب في ذلك التربية. وعلى ذكر انتقاد الأفراد الخارجين عن دائرة التعليم ملحق التربية في المدارس، أقل لك فكرة طريفة من كتاب «مشكلة التربية» (١) تأليف الدكتور (دوجاس) أستاذ علم التربية في جامعة «رين» بفرنسا وهي:

«إن الإصلاحات التي أدخلت على طرق التربية والتعليم في المدارس، إنما كان مصدرها تلك الانتقادات التي جادت بها قرائح مفكرين ليس لهم صلة بالتربية والتعليم، ولكنهم أفراد ينورون ضد كل قاسد، وينهضون لإصلاح كل معوج، وإن علم التربية برمته قد نما وترعرع خارج منطفة المدارس بفضل جهود هؤلاء الأفراد، فلم يكن «رابليه» و«موتين» و«روسو» و«ستيوارت ميل» و«سبنسر» ممن اشتغلوا بمهنة التربية والتعليم، ولكنهم باخلاصهم وغيرتهم على الصالح العام أوجدوا علم التربية الحديث، وتمهدوه، وهو لا يزال ينمو اليوم وبرق بفضل جهود أفراد بعيدين عن حركة التعليم»، ثم استدل على ذلك بفقرة من كتاب التربية تأليف «هربرت سبنسر» هذا نصها:

«لولم يكن لدينا سوى المدارس العامة (٢) وما يتخرج فيها من رجال وعلماء وسميين لبقيت إنجلترا إلى اليوم كما كانت في عهد الاقطاعات، ولكن علمنا - الذي زداد كل يوم والذي تمكنا بوساطته أن نخضع الطبيعة، وأن نسخرها لحاجاتنا حتى أصبح الفلاح عندنا يتمتع رخاء وسعادة ما كان يحلم بها الملوك الأقدمون - لم يكن لمعاهد التعليم العامة فيه سوى حظ يسير. أما المعلومات الحيوية التي أوجدت منا أمة عظيمة، والتي تقوم عليها حياتنا الأهلية، فمن عمل أفراد مخلصين، لا يشمر بهم أحد ولا يعلم الجمهور عنهم شيئاً، وبيننا هؤلاء يكدون ويكدهون في الخفاء إذا بمعلمي المدارس العامة الرسميين ذوي المناصب العالية يلوكون ألفاظاً ويرددون عبارات ما أنزل الله بها من سلطان».

لذلك ينصح (روسو) للمعلم أن يحو شخصيته أمام الأطفال، وأن يقتصر عمله على النصح والارشاد والهدى إلى التي هي أقوم، (وهذا ما يبر عنه روسو) بالتربية السلبية. وهو ينحى باللأئمة الشديدة على التربية التي تدفع الطفل إلى العلم دفعاً وتكفنه حمل ما لا طائفة له بحمله، وفهم ما لا قبل له بفهمه، وإدراك ما لا تقوى عليه مداركه، ويصنها بأنها تربية متعمرة، لأنها تحاول أن تنقل الطفل فجأة من طور الطفولة إلى مصاف الرجال، وتريد أن تلقنه - وهو مقل - حقوق الرجال وواجباتهم.

وقد سبق (روسو) إلى قد هذا النوع من التربية فلاسفة العرب، فهذا صاحب «أدب

(1) Le probleme de l'education

(2) Public Schools

الدنيا والدين» يهيب بها وينادي بدمها، ويرأها تأتي بعكس المقصود منها، وأنه بها ينقلب النور ظلاماً والبصر عمى، وذلك حيث يقول: «إن كل علم كثر على المستمع ولم يلاوعه التهم ازداد القلب به عمى وإنما ينفع سمع الأذان إذا قوى فهم القلوب في الأبدان».

غير أن الناس في كل زمان وفي كل مكان يتفاضون - للأسف الشديد - عن هذه القضية البدئية الواضحة الجلية، فيتجاهلها الآباء في البيت، كما يفعلها المدرسون في المدرسة، فتراهم يبكرون جداً بتلقين أبنائهم ألفاظاً وعبارات لا يفهمون لها معنى، ولا يقبضون لها وزناً، وهم مع ذلك يسرهم جد السرور أن يسمعوها منهم كما يسمعون البيغوات.

ومن ثم تنشأ في الأولاد عادة قبيحة لها أسوأ الأثر في تربية الأفراد والأمم، وهي التكلم بالألفاظ دون الاهتمام بمدلولاتها ومعانيها، ذلك بأن التلاميذ بتربيتهم حشوا أذهانهم بألفاظ وعبارات حشوا، وحشروها فيها حشراً، غير عالمين بأن ذلك مما يؤخر فيهم قوة الفهم، ويضعف ملكة العقل والادراك، ويكون حجر عثرة في سبيل التربية فيما بعد - لاحظ ابن القرية تجده أقوم فكراً وأحسن أداءً وأفصح منطقاً من ابن المدينة، لأنه يعيش في بيئة هادئة ساكنة لا يكاد يراه أهله إلا قليلاً، فظراً لا اشتغالهم بالحقول، فلا يتعلم إلا ألفاظاً قليلة محدودة، ثم هو لقلتها يكون على بينة من معانيها وفهم واضح لمعانيها بخلاف ابن المدينة.

وقد أدرك ذلك من كان قبلنا من مفكرى العرب وحكائهم، فنصحوا لمن عهدوا اليهم في تربية أبنائهم من المعلمين، أن يتصدوا في عرض الأفكار عليهم حتى لا يشغلهم تراجمها عن فهمها، وأن يثبتوا من فهمهم ما يمرض لهم من الألفاظ والتراكيب حتى لا يستعملوها إلا في مواطنها اللائقة ومواضعها المناسبة.

ولنعرض فقرة من كتاب عمرو بن عتبة لمعلم أولاده حيث يقول:

«ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت. علمهم كتاب الله، ولا تملهم فيه فيتركوه، ولا تتركهم فيه فيهجروه، وهم من الحديث أثره، ومن الشعر أعفه، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكوه، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم».

وجعل الامام الماوردي (صاحب أدب الدنيا والدين) من شروط بلاغة الكلام، أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة، وفكر المطابقة بأن تكون الألفاظ كالتواب لمعانيها، فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها. وقال بشر بن المعتمر في وصيته في البلاغة:

«إذا لم تجد اللفظة واقمة وموقمها ولا صائرة إلى مستقرها ولا حالة في مركزها، بل وجدتها قلقة في مكانها فأنفره عن موضعها، فلا تتركها على القرار فيه»، وقال بعض البلغاء: «لا يكون البليغ بليغاً حتى يكون معنى كلامه أسبق إلى فهمك من لفظه إلى سمعك».

وهذا ما يجب على الأهل والمعلمين أن يفتنوا له، وأن يعنوا به العناية كلها حتى لا يكون كلام أطفالهم وتلاميذهم اليوم وكلامهم وهم رجال الأمة غداً هراء في هراء، فإن الكلام ميزان دقيق في تقدير الرجال، والحكم على كفايتهم العلمية والخلقية. أحمد فهمى العمروسى